كتاب " المتع في علم الشعر وعمله "
لعبد الكريم النهشلي ومنهجه النقدي فيه

أ/ محصر وردة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

لقد أفاد المغرب قديما من مختلف التآليف التي وضعها المشارقة في مجال النقد باطلاعهم على كتابي الجاحظ (255هـ)[1] وكتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر وكتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة وغيرها من المصادر التي عنيت بقضايا الشعر والنثر.

ويُعد "عبد الكريم النهشلي" أحد أقطاب الحركة النقدية ببلاد المغرب الإسلامي، بفضل كتابه " المتع في علم الشعر وعمله ".[2] الذي ألّفه في الشعر وأحواله وفنونه، فقد أبرز أهم مزايا الشعر وفق طبيعة العملية الإبداعية وما تتطلبه من عوامل مؤثرة، كعلاقة الشاعر بالمكان والزمان، وتفاعله مع البيئة التي يعيش فيها.

وهو أبو سعيد عبد الكريم النهشلي، ولد بالمسيلة الكائنة بأقصى شرق الجزائر، وقضى بها أيام شبابه، ثم رحل إلى القيروان وكانت حاضرة علم وأدب بعدما تاقت نفسه للمزيد من التعلم فسطع نجمه بها، وترجم له "ابن رشيق المسيلي" في مؤلفه " أنموذج الزمان في شعراء القيروان"[3] واصفا إياه بأنه: "كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها".[4]

فقال الشعر في مختلف أغراضه، كالوصف، والمدح، والرثاء، والتشوق إلى الوطن، كما أورد صاحب العمدة أنه ما هجا أحدا قط.[5] وقد ألفيناه يكثر من ذكره في عمدته حتى نكاد نعتقد أنه يدوّن آراءه النقدية، وقد "أوحى ذلك لبعض الباحثين بأن يعدّوا المتع في علم الشعر وعمله، صورة سابقة ورائدة لكتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده"[6]، فاعتبره معلمه وشيخه حتى وإن لم يجلس إلى حلقاته.

ويذهب محقق مؤلفه "المتع في علم الشعر وعمله" إلى القول بأن صاحب العمدة لم يذكر الكتاب بهذا العنوان واكتفى بذكر صاحبه عبد الكريم نظرا لشهرة الكتاب في عصره: "ومن شدة شهرة كتاب عبد الكريم في عصره أن ابن رشيق نفسه لم يسبق لسانه بتسميته ولو مرة واحدة في عمدته، ولا في قراضة ذهبه، ولا في الترجمة بأنموذجه"[7]، وكانت وفاته بالمهدية سنة 405هـ حسب ما ورد في الأنموذج[8] أما محقق المتع فيذكر أنه توفي سنة 403هـ.[9]

لقد خلف "النهشلي" آثارا كثيرة غير أنها ضاعت مع جملة ما ضاع من مؤلفاته، ولم يبق سوى كتابه " الممتع في علم الشعر وعمله" وهو مفقود، وقد حقق منجي الكعبي جزءا منه، وسماه "اختيار الممتع" الذي نعتبره نتفا من ديوان نقدي ضمنه "النهشلي" أهم آرائه النقدية ما في ذلك شك.

وفي غياب المؤلف كاملا نعتبر هذا الجزء الذي وصلنا مصدرا مهما نخصه بالدراسة والبحث محاولين التوصل إلى كل ما تحمله تلك الآراء النقدية من دلالات مختلفة تكون قد أثرت ساحة النقد الأدبي في الجزائر قديما والثقافة العربية عموما.

يعتبر "الممتع" أول كتاب ظهر في بلاد المغرب قديما، تخصص في مجال النقد، وهو في مجمله قريب من كتاب " العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، حيث إنه تضمن الشعر العربي القديم والكثير من أخبار العرب ولم يأت ذكر الأدب المغربي فيه إلا نادرا كذكره لبعض شعره. (10)

وقد تعرض فيه "النهشلي" إلى مجموع قضايا الشعر، كتعريفه للشعر وتفضيله على النثر، كما تناول بالتنظير بعض دواعي نظم الشعر وتأثيره في المتلقي.

والهدف من وراء هذه القراءة هو تحديد منهجه النقدي في أهم ما يتعلق بالإبداع الشعري.

الشعر عند "عبد الكريم النهشلي" لم يكن مجرد كلام موزون ومقفّى أو أقوال دالة على معنى، وإنما يرى أنه مرتبط بمسائل عدة: "... والشعر عندهم الفطنة، ومعنى قولهم ليت شعري أي ليت فطنتي، والشعر أبلغ البيانين وأطول اللسانين وأدب العرب المأثور وديوان علمها المشهور...". (11)

يتجلى من خلال هذا النص أنّ "النهشلي" قد فهم الشعر على أنه إحساس، ووجدان، والفطنة عنده ضد الغفلة، ويقظة العقل ورشده، وهي إشارة إلى عنصر الإلهام، إلى جانب الشعور الصادق الذي يعد مصدر إبداع الشعراء، فالشاعر عنده يجب أن يكون واعيا فطنا في نظمه لما تستوجبه عملية الإبداع الأدبي من حضور ذات المبدع وعقله. وهو ما يعرف بالتجربة الشعرية الصادقة.

كما أن الشعر عنده أبلغ البيانين وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها، واعتبر النثر مجال العلم لا مجال أدب وفن، والعلم بمفهوم "النهشلي" هو الفلسفة، والمنطق والتاريخ، والطب وغيرها من العلوم، لذلك فهو دون الشعر الذي موضوعه العواطف والخيال والتعبير الصادق عن محل الأحداث التي يعيشها الشاعر ويسجلها في شعره.

وهو خير كلام العرب بعد القرآن الكريم، تطمئن له القلوب، وترتاح له النفوس: "و في الشعر التياط بالقلوب، ومدخل لطيف إلى النفوس، وسلم مختصر إلى الأوهام، ومعز شاف، وواعظ ناه، ومعقل يأوي إليه المحروب، ويسكن إليه المحزون، ويتسلى به المهموم". (12)

ثم يعود الناقد إلى تصنيف الشعر حيث يرتبه حسب موضوعاته إلى أربعة أصناف: "فشعر هو خير كله، وذلك ما كان في باب الزهد، والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثل به بالخير، وما أشبه ذلك، وشعر هو ظرف كله، وذلك القول في الأصناف والنعوت والتشبيه وما

يفتن به من النعوت والمعاني والآداب، وشعر هو شر كله، وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس، وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو يأتي إليه من جهة فهمه". [13]

و "النهشلي" في تصنيفه هذا، قد اعتمد على ثنائية الخير والشر التي اعتبرها محورا أساسا للإبداع الشعري، والذي يصور جانبا من جوانب الصراع الأخلاقي والفلسفي لدى الإنسان مع ذاته أو مع محيطه. ويفصل بين الخير والشر، بالجمال الفني، وكأنه أدرك أن الصياغة الفنية والجمالية للشعر هي التي تقيم التوازن بين الخير والشر.

غير أن هذا التصنيف الأخلاقي للشعر قد لا يعجب الكثير من دعاة التجديد والذين ينشدون الفن للفن، إلا أن لتصنيف "النهشلي" هذا وزنه وقيمته في عصره وقد يمتد إلى عصرنا هذا؛ كما يرى "محمد مرتاض" : "... لكنه تقسيم له قيمته في زمانه وحتى في زماننا هذا، والقمين بالتسجيل أن لهذا الناقد رأيا خاصا به في الشعر الذي ينحو منحى إسلاميا أو منحى غزليا". [14]

والناقد واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة عارف بأسرار الشعر ومعانيه، وهو ما مكنه من اكتشاف سقطات بعض الشعراء الكبار كأبي تمام في قوله:

مَهَـــــا الـــــوَحْشِ إلاَّ أَنَّ هَاتَـــــا أَوَانِـــــسٌ
قَنَـــــا الخَـــــطِّ إلاَّ أَنَّ تِلْـــــكَ ذوَابِـــــلُ

قال "النهشلي": "فيه غلط من أجل أنه نفى عن النساء لين القنا، وإنما قيل للرماح "ذوابل" للينها وتثنيها، فنفى ذلك أبو تمام عن قدود النساء التي من أكمل أوصافها اللين والتثني والانعطاف"[15] لقد أورد "عبد الكريم النهشلي" رأيه في "أبي تمام"، وفي غيره من الشعراء في معرض حديثه عن الشعر، فلم يفرد للشعراء بابا خاصا بهم في كتابه، وهي آراء موسومة بالاختصار الشديد أحيانا كثيرة مثل قوله في زهير "و من ذِكر مقامات العرب وتنويههم بأفعالهم فيها قول زهير بن أبي سلمى، وكان يجيد المديح وهو أعذب لفظ وأحسن معنى". [16]

وإذا رمنا أن نجمل خصائص المنهج النقدي لعبد الكريم النهشلي، يمكن أن نذكر أنه أورد الكثير من النصوص الشعرية مستشهدا بها في قضية من القضايا التي تناولها.

كما ألفيناه يورد بعض الأبيات عند المفاضلة بين شاعرين وانتهائه بتفضيل واحد على آخر، كما صنع مع جرير والفرزدق.

كذلك شرحه لبعض الألفاظ الصعبة التي ترد في النصوص الشعرية وذكره للمناسبة التي قيلت فيها.

كما جاءت أحكامه النقدية عامة موجزة ومتداولة من لدن النقاد والأدباء، وهي في مجملها أحكام انطباعية ذوقية.

عدم اهتمامه بدراسة وتحليل ما وقف عليه من أشعار كما يؤكد ذلك "بشير خلدون": "فقلما نظفر برأي نقدي واضح فيه معارضة للشعراء"[17].

دعوته إلى عالمية الإبداع وشموليته، وعدم حصره ضمن حدود مكانية أو زمانية، فهو يرى أن الحذّاق من الشعراء من ينتقون لأشعارهم معجما لغويا يتسع لكل بيئة وعصر.

أخيرا، ومهما يكن من شأن هذا الناقد الجزائري المولد والنشأة، المغاربي النزعة والانتماء، فإن النتائج والآراء التي توصلت إليها هذه القراءة المقتضبة في ديوانه النقدي "اختيار الممتع" يمكن اعتبارها اللبنات الأساسية في بناء النقد المغربي القديم والذي تجلت سيماته وتحددت معالمه عند "ابن رشيق" الذي أفاد من كتاب الممتع، مؤسسا على أبوابه أهم مصنف نقدي تناول الشعر وصنعته وهو ذلك المؤلف الموسوم " بالعمدة ".

الهوامش:

[1] إشارة إلى كتابي أبي عثمان الجاحظ البيان والتبيين، والحيوان.

[2] عبد الكريم النهشلي، الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق منجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، تونس 1978.

[3] حسن ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس 1986.

[4] المصدر نفسه، ص 171.

[5] المصدر نفسه، ص 171.

[6] المصدر نفسه، مقدمة المحقق.

[7] المصدر نفسه، مقدمة المحقق.

[8] ابن رشيق، الأنموذج، ص 171.

[9] عبد الكريم النهشلي، الممتع، مقدمة المحقق.

[10] المصدر نفسه، ص 164.

[11] المصدر نفسه، ص 24.

[12] المصدر نفسه، ص 373.

[13] بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 270، 271.

[14] محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص 45.

[15] حسن ابن رشيق، العمدة ج2، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة 1955، ص 247.

[16] عبد الكريم النهشلي، الممتع، مصدر سابق، ص 77.

قول زهير ابن أبي سلمى:

وَفِـــــيهِمْ مَقَامَـــــاتُ حُسَـــــانٌ وُجُوهُهَـــــا

وأَنْدِيَـــــةٌ يَنْتَابُهَـــــا القَـــــوْلُ والفِعْـــــلُ

[17]. بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص: 271.